الناصرية ومقاصدنا الثورية

بقلم الدكتور نديم البيطار

في مقال بعنوان ((نحو الارتباط بثورة ٢٣ يوليو)) ، ظهر في العدد السادس من مجلة ((مواقف)) ، حاولت تحديد ووجوب هذا الارتباط على ضوء بعض القوانين او الاتجاهات العامة التي تتكشف عنها التجارب الوحدوية والثورية في التاريخ . وكانت النتائج الاساسية التي توصلت اليها ما يلي :

١ ـ التجارب الوحدوية في التاريخ ، اي التجارب التي ينتقل فيها مجتمع او امة مجزأة مبعثرة الاجزاء ، الى دولة واحدة تحقق وحدتها ، تدل ان على الاجزاء اعتماد قاعدة تتركز عليها الجهود الوحدوية .

٢ ـ التجارب الوحدوية والثورية في التاريخ تدل بوضوح على ان الحركات الثورية لا تصح كحركات ثورية دون قاعدة شعبية عامة ، وأن ثورتها تلتصق التصاقا مباشرا بالاساس الشعبي الذي تستطيع اعتماده . فدون الجماهير وولاء الجماهير لا يمكن لحركة ((ثورية)) ان تكون ثورية .

٣ ـ التجارب الثورية تدل على انه بقدر ما تزداد ثورية الحركة الثورية تزداد حدة الشخصنة في القيادة .

٤ ـ عبد الناصر هو القائد العربي الوحيد الذي استطاع ، بصفاته ، ومنجزاته ، وقيادته ، ان يوفر الحركة العربية القومية الثورية الرمز او القيادة المشخصنة التي تحتاجها هذه الحركة في التعبير عن ذاتها وفي بلورة هذه الذات بلورة ثورية ووحدوية .

٥ ـ مصر ، بثورتها ـ ثورة ٢٣ يوليو ـ وبامكاناتها العديدة هي القاعدة الطبيعية للحركة العربية الثورية في سعيها وراء مقاصدها الثورية وفي طليعتها الدولة الواحدة التي تحقق وحدة العرب من الخليج الى المحيط .

في ضوء هذه النتائج دعوت الى الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ارتباطا استراتيجيا مرحليا ، اي ارتباطا لا يلزم صاحبه بقبول تام لمفاهيمها الثورية ، او بتجاهل ما قد تنطوي عليه من نقص وضعف ، ارتباطا يشجع على النقد والتصحيح ولكن في اطار الارتباط ، وليس في اطار الخصومة ، او اطار تجربة اخرى تقدم نفسها بديلا عنها . اما هذا الارتباط فيجد تبريره في كونه طريقنا الوحيد حاليا الى الوحدة العربية ، ولأن هذه الوحدة في دولة واحدة هي البعد الثوري الاساسي الذي لا يمكن لنا دونه تحقيق مقاصدنا الثورية الاخرى . فالدولة الواحدة ، وان كانت غير كافية في ذاتها ، فهي ضرورية ومن دونها تستحيل هذه المقاصد .

ونحن ان تركنا جانبا طابع ((الحقد والضغينة)) الذي ميز معظم الردود التي صدرت في العدد نفسه على ذلك المقال ، لا نستطيع ان نترك جانبا طابع التبشير والتجريد الذي كان اول ما يستلفت النظر في تلك الردود ، لان جميع ما ورد فيها تقريبا تجاهل تماما الواقع التاريخي الوحدوي والفوري الذي انطلقت منه ، كما تجاهل ايضا الى حد كبير تلك الاتجاهات والقوى التي رجعت اليها في الواقع العربي ، وعلى اساسها دعوته الى الارتباط . اذكر هذا للتأكيد وللتدليل مرة اخرى على ان الفكر العربي الثوري هو في معظمه فكر تبشيري تجريدي اخلاقي ، يمضغ كلمة ((علمية)) او ((منهج علمي)) دون القدرة على تمثلها بأي شكل صحيح (١) ، وأن ابشع اشكال هذا الفكر كانت حتى الان تلك التي جعلت همها الاول مخاصمة ثورة ٢٣ يوليو والناصرية باسم تجربة اخرى ، او دون تقديم اي بديل عنها. اذكر هذا في تقديم هذا المقال بغية تنبيه القارىء الى ان تحديد موقفنا من موضوع مصيري كموضوع الوحدة ، او موضوع الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ، يجب ان يتم ليس في ضوء ميولنا ونوازعنا وآمالنا، او نزواتنا الشخصية ، بل في ضوء الواقع العربي الثوري ككل ، وفي ضوء تجارب التاريخ الثورية وما يمكن ان تتكشف عنه من اتجاهات وقوانين . فالثوري هو اولا من يعمل مع التاريخ وليس ضده .

المجتمع الجديد او مقاصدنا الثورية لا تتحقق لنا نتيجة تبشير او صورة مثالية نعمل بوحيها على الرغم من اهمية هذه الصورة من ناحية نفسية ، بل تتحقق نتيجة العمل بوحي المنطق العام الذي يسود الاوضاع الاجتماعية التاريخية الجديدة التي تتكشف عنها المرحلة الانتقالية التي نمر بها . لذلك كانت دراسة الاتجاهات العامة التي تسود التطور التاريخي الاجتماعي وخصوصا في مراحله الانتقالية المماثلة للمرحلة التي نعانيها ، تشكل نقطة الانطلاق للفكر الثوري العلمي الصحيح . فهذه الاتجاهات هي التي تحدد النظام المقبل ، المستقبل والمجتمع الجديد ، وهي التي تعين الطريق المؤدية الى ذلك. الفكر الثوري هو الفكر الذي يكشف عنها ، او الذي ينطلق من محاولة

---

١ ـ في رده المفحم على تلك الردود (مواقف ، عدد ٧) كتب الدكتور طارق اسماعيل ((ان اراد احد برهانا اضافيا على الاتهام الذي يوجهه نديم البيطار منذ نشر كتابه الاول ((الايديولوجيةالانقلابية)) قبل حوالي ست سنوات حينوصف الفكر العربي الثوري بأنه اساسيا وفي معظمه فكر تبشيري ، فان معظم الردود على المقالة الآنفة الذكر ما هي الا توكيد على حقيقة نظرية البيطار)) .

في الكشف عنها ، كما ان الموقف الاستراتيجي الثوري الصحيح هو الموقف الذي يستطيع ان يعتمد فكرا من هذا النوع .

المعرفة العلمية الصحيحة ليست معرفة عفوية للواقع ، ولا تشتق من تجربة جزئية له ، بل تعتمد منهج المقارنة comparatire method ولا تعطي قيمة للملاحظات والوقائع الفردية ان لم تكن جزءا من هذا المنهج .

الفكر الثوري لا يمكن له ان يقوم بدوره ان بقي على صعيد التبشير ، يدعو الى التمرد باسم عدالة ، او حرية خالدة ، او مفاهيم مجردة ضد مظالم مطلقه ، الخ .. فالشوق الى حياة جديدة ليس كافيا لاجراء التحويل الثوري الذي نريد ، ومشاعر القلب لا تقود الى تصحيح ما نشكو منه او نبغيه من مثل وقيم . فخارج ذلك الشوق وهذه المشاعر يجب ان نفتش في الواقع الموضوعي عن القوى والاتجاهات التي يمكن ، باعتمادها ، ان تتجه وجهة تلك المثل والمقاصد، او ان تقيم مجتمعا جديدا .

الحركة الثورية يجب ، اذن ، ان لا تبني مواقفها الاستراتيجية على التمرد الاخلاقي بل على دراسة علمية موضوعية للظواهر الاجتماعية التاريخية وعلى الاتجاهات التي تسودها . فهذه الظواهر تتميز بوجود موضوعي مستقل عن ارادة الافراد ، والفكر العلمي هو الذي يقيس صحة مبادئه ومواقفه بدرجة انطباقها عليها وعلى الديالكتيك الذي تتكشف عنه . فهو لا يخرج هذه المبادىء والمواقف من جعبة خياله ، بل من طبيعة التحول الاجتماعي التاريخي الذي يعانيه .

اننا لسنا مطالبين ، في هذه المرحلة ، بالعمل في ضوء مقاصد ثورية جديدة ، بل بأن نجد وسائل جديدة لتحقيق مقاصد معروفة . لا يكفي ان يعلن العربي الثوري انه يريد الدولة الواحدة كي يصبح وحدويا ، لا يكفي ان يبين خطر الامبريالية او ان يشتمها كي يصبح فعلا ضد الامبريالية ، بل يجب ان يدرك طريقه الى الدولة الواحدة، والى كيفية التحرر من الامبريالية . لا يكفي ان يعلن تمرده على النظام الاجتماعي السياسي التقليدي او القائم كي يصبح ثوريا ، بل يجب ان يدرك موقعه في الواقع الموضوعي الثوري المتحرك ، طبيعة هذا الواقع ، القوى الفاعلة فيه ، والاتجاهات الدافعة له . كل ذلك يفرض معرفة نظرية ليس فقط لهذا الواقع بل لتجارب التاريخ الثورية .

في ضوء هذا المفهوم يمكن القول ان اليسار الفكري العربي هو اساسيا يسار فاشل . المشكلة الان ليست فقط تعيين واقع هذا العجز بل تجاوزه بفكر ثوري جديد ينبني ليس على النوايا والمقاصد، على العموميات والتبشير ، على التخريجات اللفظية والشعارات الجذابة والمزايدات الطفولية ، بل على التطور التاريخي والتحول الاجتماعي ، وما ينكشفان عنه من اتجاهات عامة ، على التجارب الوحدوية والثورية التاريخية وما تنطوي عليه من قوانين ، على الواقع العربي الانتقالي وما يفصح عنه من قوى مستقلة . الفكر العربي الثوري الجديد الذي نحتاج اليه هو الفكر الذي يستطيع احلال الوعي التاريخي الثوري محل الانفعالات وردود الفعل الانفعالية التي تسود حاليا اليسار الفكري .

هذا اليسار في معظمه يرقص على انغام ثورية يسمع صداها من الخارج ولكن دون ان يتعلم ابدا تلك الانغام . انه يصفق ويهلل لتجارب ومبادىء ثورية تلقف اخبارها من الغير فاخذ يجترها دون ان يحللها ويكشف حقيقة الاوضاع التي ظهرت فيها ، وحقيقة القوى التاريخية التي عبرت عنها ، حقيقة الواقع الذي يريد ان يمارسها فيه وحقيقة القوى والاتجاهات التي تسود هذا الواقع . انه يلوك بشكل مستمر ، بكل مناسبة ، وفي كل شيء ، كلمة منهج علمي او علمية ، ولكن دون قدرة على تمثلها . ليس هناك من كلمة ابتذلت في يد هذا اليسار اكثر من هذه الكلمة ، كما انه ليس من موقف فضح هذا «الابتذال» اكثر من موقف بعض فصائل هذا اليسار من الناصرية.

* * *

لا شك ان التجربة الناصرية الرائدة تنطوي على الكثير من النقص والخطأ ، ولكن ما يجب ان نطرحه هنا ليس وجود النقص ، بل اولا ان كانت التجربة دلت على قابلية في تجاوز ذاتها وتصحيح النقص ؟ وثانيا ، ان كان يمكن لأي تصحيح ضروري نفكر به ان يكون امتدادا او تطويرا لقوى وخصائص موجودة في الناصرية ، اي ان كانت الناصرية «مقفلة» او «مغلقة» تمهد في اوضاعها ذاتها للتصحيح والتطوير ام لا ! لا شك ان اية نظرة موضوعية حول الموضوع تعطي جوابا ايجابيا على هذه الاسئلة المطروحة . فالناصرية دلت على قدرة بينةفي تجاوز ذاتها منذ ظهورها حتىوفاة مؤسسها الكبير. فممارستها لذاتها كانت تدل باستمرار على هذه القابلية ، ثم ان التحولات التي اجرتها في مجتمعها تحمل بذور وقوى هذا الاستمرار في تجاوزها الذاتي . اما من ناحية اخرى ، فيجب امام النقص او الخطأ ، ان نطرح سؤالا ثالثا ، ليس حول النقص والخطأ بشكل مجرد ، بل بشكل نسبي ، فنتساءل ان كان هناك من ثورة عربية اخرى استطاعت ان تتجاوز ما يمكن ان نعين فيها من نقص او خطأ ، او ان تنطوي على امكانات توفر لها قوة دفع اكبر في تجاوز النقص والخطأ !. وبما ان الدولة العربية الواحدة هي الشرط الاساسي الذي لا يمكن لمقاصدنا الثورية ان تتحقق دونه ، فيجب ان نتساءل ، رابعا ، ان كان هناك من ثورة اخرى تستطيع ان تحل محلها فيقيادتنا الى هذه الدولة ؟. لا شك ان الجواب هو النفي ايضا ثالثا ورابعا .

نقض الارتباط بثورة ٢٣ يوليو لا يصح ان يبرر ذاته على اساس ما لم تحققه . بل ، اولا ، على اساس ما حققته في ضوء ما يمكن ان تحققه . وثانيا ، في ضوء قدرة حركات اخرى موجودة يمكنها ان تحقق ما حققته بشكل احسن ، او ان تحقق ما لم تحققه . وثالثا، على اساس صلة ما حققته بما لم تحققه ، وان كان ما حققته يقود الى ويحمل بذور ما لم تحققه .

الجواب الموضوعي على هذه القضايا المختلفة ، الجواب الذي يستطيع ان يعمل خارج السمة الاولى التي تميز الفكر العربي الثوري، اي سمة التبشير والعموميات والمزايدة ، وهو جواب يدعم الارتباط، لا ينفيه او يضعفه :

١ ــ الحكم عليها باسم ما لم تحققه وقدرتها على تحقيقه ، حكم مجرد لا قيمة موضوعية له . فهو من النوع الذي يمكن اعتماده في دفع الثورة ، اي ثورة ، ولكن لا يصح كحكم في نقض الثورة او في تبرير الحياد نحوها او اللامبالاة بها .

٢ ــ الحكم عليها سلبا لان حركة اخرى كان يمكن ان تحقق اكثر مما حققته او ان تحقق ما حققته احسن مما حققته ، هو الاخر حكم مجرد غير موضوعي لان تلك الحركة لم تؤكد ذاتها ، وهي غير موجودة، ولأن الوطن العربي كله كان ولا يزال مفتوحا مجالا واسعا أمامها ، ولكن دون ان نرى اثرها في اي مكان .

٣ ــ الحكم عليها باسم ما حققته ، وصلة ذلك بما لم تحققه ، هو في الواقع الصعيد الوحيد الذي يصح نقدها فيه . هنا يجب ان نعلم ان كان ما حققته يمهد الطريق لما لم تحققه ، وان كان ضروريا تحقيقه اولا كي يمكن تحقيق ما لم تحققه . هنا نجد ايضا ان الجواب الموضوعي يبرر الارتباط على الاقل حاليا وفي المرحلة الانتقالية التي نعانيها نحو الدولة العربية الواحدة . فالناصرية هزت المجتمعالعربى التقليدي اكثر من اية ثورة اخرى ، او بالاحرى كانت الثورة الوحيدة التي استطاعت ان تهز هذا المجتمع ككل ، من المحيط الى الخليج ، كما ان هذه الهزة التي ادت الى تحريك الجماهير وولائها الفريد لقيادة عبد الناصر هي التي مهدت الطريق الى ولادة الثورات المحلية

الاخرى . فهي كانت الثورة الاولى والوحيدة ، حتى الان ، التي انهت بشكل نهائي التناقض الاساسي في المجتمع العربي بين الرأسمال والعمل ، بين الاقطاع والفلاحين ، لمصلحة الفلاحين والعمال . وهي التي ضربت نهائيا التركيب الاجتماعي السياسي التقليدي وحاولت جديا اقامة قواعد تركيب جديد ، يعتمد اساسيا مشاركة ملايين الفلاحين وملايين العمال . وهي الوحيدة التي نسجل ، رغم نفقات الحرب الباهظة ، اي تقدم محسوس باعتماد التكنولوجيا والعلم والصناعة ، والتي تخطط علميا وفي المدى البعيد في هذا الصدد ، اي بكلمة اخرى مختصرة ، انها خلقت ولا تزال تخلق اكثر من غيرها بكثير الاوضاع الموضوعية التي يمكن بها وعبرها الانتقال الى مرحلة اخرى .

هذا يفرض نتيجتين اساسيتين ، اولا ، ان الاوضاع الموضوعية تفرض الارتباط الاستراتيجي المرحلي بها . وثانيا ، ان اي نقد لها يجب ان يتم في اطار هذا الارتباط ، وأن اي تجاوز لها يجب ان يكون عبر هذا الارتباط ، لان الاوضاع الجديدة التي تخلقها مباشرة وتجد مباشرة هي وحدها التي تجعل من الممكن الانتقال الى مرحلة اخرى ، او شق الطريق نحو الدولة الواحدة ، الشرط الاساسي لتحقيق مقاصدنا الثورية الكبرى . وبما ان الشرط الاساسي الذي يشرط جميع مقاصدنا الثورية الاخرى هو الوحدة من الخليج الى المحيط في دولة واحدة ، وبما ان هذه الدولة تستحيل دون مصر، وبما ان الناصرية كانت ولا تزال قاعدة هذه الوحدة ، فان الاستنتاج الثوري الذي يفرض نفسه علينا هو انه يستحيل استراتيجيا تجاوز الناصرية في هذه المرحلة الانتقالية الى الوحدة .

كتب هيجل مرة بأن الاحداث التاريخية الكبيرة تحدث اولا كمأساة . في تعليق على هذه العبارة ، كتب ماركس بأن هيجل نسي ان يذكر بأن هذه الاحداث تتحول الى مهزلة عندما تعيد ذاتها ، وطبق ذلك على رجالات ثورة ١٨٤٨ في فرنسا ، في محاولة تقليدهم للثورة الفرنسية ، فكان تقليدهم اقرب الى مهزلة منه الى ثورة . وأوجست كونت كتب ، قبل ماركس ، الشيء نفسه ، فقال بأنه لا يمكن اعادة ثورة اصيلة كالثورة الفرنسية . «ففي السياسة لا تنفع شيئا مواقف التقليد مهما حسن توجيهها . انظروا مثلا الى المسرحية الاسبانية البائسة في تقليد الثورة الفرنسية» (١) .

سبب ذلك يعود ، كما يتراءى لي ، اولا ، الى كون الاوضاع المتعددة والروابط التي تربط بينها والقوى التي تتكشف عنها ، التي تفجر الثورة الكبيرة وتدفعها في وجهة معينة ، لا تعيد نفسها الا بشكل محدود جدا في التاريخ ، لذلك كانت الثورات الكبرى قليلة جدا . ثانيا ، ان التقليد في ذاته لا يستطيع ، مهما كان امينا للانموذج الذي يقلده ان يؤدي الى اعادة الانموذج ، لان ديالكتيك التقليد النفسي والفكري ذاته لا ينطوي على الامكانات والطاقات التي تميز ديالكتيك الخلق والابداع .

الناصرية فجرت لاول مرة اوضاعا تاريخية كانت مختمرة للتفجير الثوري في الوطن العربي ، وكانت وجهة التفجير التي فرضتها هذه الاوضاع هي تحقيق ثورة اجتماعية في اطار عربي قومي وحدوي ثوري. وهذا يعني ان الناصرية التي عبرت عن هذا التفجير وفي قطر عربي يتميز بامكانات مادية وبشرية واجتماعية واستراتيجية تؤهله اكثر من اي قطر اخر في التعبير عن هذا التفجير وقيادته ، ستبقى الثورة الرائدة والقاعدة الى ان تستنزف نفسها في انجازاتها ، اي الانجازات التي تحقق المقاصد التي فجرتها : الثورة الاجتماعية في اطار الدولة الواحدة التي تجمع العرب من الخليج الى المحيط . لهذا لا يمكن تجاوزها بأية ثورة اخرى قبل استنزافها لذاتها في هذه المقاصد ، او ان امكن تجاوزها ، فالتجاوز لا يمكن دون بتر هذه المقاصد ، وذلك للاسباب التالية :

١ ــ لان هذه المقاصد اقترنت في ذهن الجماهير العربية بالناصرية ، ودون ولاء الجماهير تستحيل هذه المقاصد .

٢ ــ لان تحقيق الاشتراكية بشكل فعال ، دخول القرن العشرين او بالاحرى الواحد والعشرين ، التغلب على التخلف بجميع وجوهه، تحقيق التنمية الاقتصادية والعلمية بشكل يستطيع ان يجاري العصر الحديث في ثوراته الذرية ، والالكترونية ، والالية ، والفضائية ، التغلب على الامبريالية ووسائلها الجديدة ، تجاوز الهوة التي تزداد اتساعا بين بلدان العالم الثالث والبلدان الصناعية المتقدمة ، تحرير فلسطين واسترجاعها ، الخ .. كل هذه المقاصد تحتاج الى حشد امكانات وطاقات الوطن العربي المادية والديمغرافية والسياسية .

٣ ــ ان مصر بامكاناتها المادية والاجتماعية والديمغرافية والثورية تشكل القاعدة الطبيعية في هذه المرحلة الانتقالية الى الوحدة العربية .

٤ ــ ان موقع مصر الاستراتيجي في قلب الوطن العربي يجعل الدولة الواحدة مستحيلة دون مصر اي دونها يستحيل تحقيق الشرط الاول الاساسي الذي يشرط تحقيق مقاصدنا الثورية النهائية.

هذا يعني ان الناصرية بقاعدتيها ، الثورة الاجتماعية والدولة الواحدة ، وما دامت تنطلق من هاتين القاعدتين ، لن تفقد على الاقل ذلك الحد الادنى من الديناميكية الثورية التي تجعلها قاعدة للحركة العربية الثورية . من ناحية اخرى يمكن القول ان الاوضاع التي تحيط بها او تفاعلها مع هذه الاوضاع يفرض عليها فرضا الانطلاق الدائم من هاتين القاعدتين ، بل زيادة ولائها وارتباطها بهما . اهم هذه الاوضاع هي :

١ ــ معركة تحرير فلسطين التي لا يمكن للناصرية ان تتجنبها او ان تبترها او ان تجمدها ، وهي ان ارادت ذلك ، اي ان وصل الى قيادتها قادة قد تراودهم فكرة من هذا النوع ، فان الضغوط التي تفرضها هذه المعركة ، ووجود اسرائيل في ذاته ، سوف تدفعها الى المزيد من الارتباط بهاتين القاعدتين .

٢ ــ معركتنا مع الامبريالية . فهذه الاخيرة لن تتركها تهدأ او تستكين في اي شكل قطري ، لانها تنساق بطبيعتها وبحكم ديالكتيكها نحو اخضاعها او تخريبها . لذلك كان اي انكماش قطري يبتعد عن تلك المقاصد يعني ان الناصرية تنكر ذاتها ، وان افترضنا وصول قيادة تحاول ذلك ، فالارجح ان هذا يؤدي الى انقلاب عليها ــ اي القيادة ــ من الداخل يصحح سير الثورة .

٣ ــ متناقضات وضعف بناء اشتراكية عربية قطرية . اهمال الثورة الاجتماعية او التنكر لها في اطار وحدوي ، يعني ان الثورة تستطيع تحقيق مقاصد الثورة الاجتماعية كما حددنها في الفقرة الثانية في اطار القطرية ، وهذا امر يستحيل عليها ، على اية قطرية عربية، حتى وان كان ذلك القطر مصر بثورته الثابتة المستقرةوامكاناته الكبيرة . محاولة كهذه تكشف ، ان لم يكن نظريا ، فعن طريق الممارسة لغو قصد كهذا القصد ، وتندفع عبر الممارسة الى تجاوز قطريتها ، لان الممارسة ستكشف لها ان الوحدة العربية في دولة واحدة هي الاطار الطبيعي لتحقيق مقاصد الثورة الاجتماعية .

من هذا يتضح ان اية محاولة في تجاوزها في هذه المرحلة الانتقالية نحو الوحدة هي محاولة فاشلة ، وأنه عند حدوث اي تجاوز ــ ان افترضنا جدلا امكانه ــ فانه سيكون من النوع المبتور . ما اعنيه بذلك هو انه قد يمكن لثورة عربية قطرية ان تتجاوزها في صعيد معين او اكثر ، اي بتصحيح بعض وجوه النقص التي قد توجد فيها، ولكنها لا تستطيع ان تحل محلها في قيادتنا الى تحقيق المقصدين الاساسيين ، الثورة الاجتماعية في الدولة الواحدة . يمكن لثورة اخرى مثلا ان تتجاوزها على الصعيد الايديولوجي المحض باعتماد

---

١ ــ P. Arnaud . Politique d'Auguste Comte , 1965 ,P. 259

فلسفة حياة جديدة تنكر فيها فلسفة الوجود العربي التقليدي الغيبية، تتخذها قاعدة للدولة والمجتمع، وتعلمن الذات وجميع اصعدة الحياة بها. كما يمكن لها ان تعتمد حزبا ثوريا، او بالاحرى يمكن لثورة عربية قطرية ان تأتي عن طريق قيادة حزب ثوري للثورة، يكون فيما بعد اداة للسلطة وتثوير المجتمع، كما يمكن لها ان تتخذ سياسة صراع طبقي حازمة ضد جميع الطبقات العربية التقليدية، الخ.. ولكن هذه الثورة، وان استطاعت ذلك، فان منجزاتها تبقى مبتورة، لانها لا تستطيع ان تحقق مقاصدنا الثورية الاساسية، وهي كي تستطيع ذلك وجب عليها ان تقودنا الى الدولة الواحدة، وهو مقصد لا تستطيعه للاسباب التي ذكرناها آنفا.

الارتباط بالناصرية ارتباطا مرحليا استراتيجيا يفرض نفسه ليس فقط لان منجزاتها تتقدم نسبيا على اية منجزات اخرى، بل لانه ليس هناك من بديل لها تستطيع ان نصل عن طريقه الى الدولة الواحدة، فدون هذا الارتباط تستمر الامة العربية مجزأة وتسود التجزئة ثورتها، وتعجز الامة وثورتها عن تحقيق مقاصدنا الثورية.

نقطة الانطلاق في الموقف الوحدوي الثوري هي الامةالعربية ككل، في تحركها الثوري الاجتماعي. لذلك فان واجب هذا الموقف هو الدفاع عن مصلحة هذه الامة ككل ضد اية حركة او قطر ينحرف عنها. مقياس هذه المصلحة، المقياس الذي يحددها هو وجهة الشعبالعربي ككل في تحركه الثوري. الناصرية استقطبت ولاء هذا التحرك الشعبي وكانت قاعدته. لذلك كان الارتباط بها ارتباطا بقضية الامة في تحركها الثوري، ومقاومتها الانحراف عن هذا التحرك، ومخاصمة للجماهير العربية، مقاصدها ومصلحتها.

الحركات العربية الثورية في الاقطار العربية المختلفة لا تمثل مصلحة هذه الاقطار، بل مصلحة الامة العربية في ممارستها الثورية لذاتها، في ممارستها الثورية لواقعها وللتاريخ الحديث. وبما ان طريقنا الاستراتيجية الى مقاصد هذه الممارسة الثورية ترتبط ارتباطا وثيقا مباشرا بالجمهورية العربية المتحدة، فيجب القول ان هذه الحركات تمثل مصلحة هذه الجمهورية في هذه الاقطار، تنفذ ارادتها وليس ارادة نظم او مصالح قطرية. فهي لا تمثل ذاتها او هذه الاقطار ضد الجمهورية او بشكل مستقل عنها، بل نمثل هذه الجمهورية ضد الاقطار وضد اية ذات مستقلة لها. ان مهمة هذه الحركات ليست مقاصد ثورية مجردة، بل مقاصد ثورية في اطار دولة واحدة.

حرية اي قطر عربي لا يمكن لها ان تناقض نهائيا حرية الكل العربي، بل هي تتحقق عبر هذا الكل وفي اطاره. وبما ان الجمهورية العربية المتحدة هي محور هذا الكل، قاعدته والطريق اليه، تصبح حرية كل قطر في الارتباط بهذا المحور، وبالعمل فيه ومعه.

***

ان علاقة كل حركة سياسية مع التاريخ والقوى الفاعلة فيه تتخذ واحدا من اربعة اشكال:

فهي تستطيع ان تجاري تلك القوى وتسير معها، وبذلك تساند الامكانات الثورية التي تنطوي عليها.

وهي تستطيع ان تعي هذه القوى وأن تتقدمها عن طريق هذا الوعي الثوري فتجعلها تتكشف بسرعة اكبر وتختصر الطريق أمامها.

وهي تستطيع ان تقاوم اتجاه التاريخ والقوى الفاعلة فيه مقاومة سلبية وبذلك تخسر كل فاعلية.

وهي اخيرا تستطيع ان تحول مؤقتا دون تطور التاريخ في بعض المناحي التي تفرضها القوى الفاعلة فيه وتفرض عليه بعض المناحي المفتعلة. كل حركة سياسية تتخذ الشكل الثالث او الرابع موقفا لها تستطيع ان تؤذي التاريخ او القضية الثورية التي ينكشف عنها في مرحلة معينة، ولكنها تعجز في المدى البعيد عن الحيلولة دونه ودون المقاصد الجديدة التي تفرضها القوى التي تحركه.

الحركات التي حاربت الناصرية وقعت في هذين الانحرافين رغم ما قد تنطوي عليه من نوايا ومقاصد، وذلك لانها لم تدرك القوى الاساسية الفاعلة في التاريخ الحالي الذي نعانيه.

فهي لم تدرك ان الفاعلية الثورية تستحيل على اية حركة لا تعتمد الجماهير وولاء الجماهير، وأن الناصرية هي الثورة التي كسبت وحدها هذا الولاء عبر الوطن العربي، فأدت مخاصمتها للناصرية الى تخريب سيرنا نحو مقاصدنا الثورية.

وما دام انه ليس هناك من قيادة تجذب خيال الجماهير ومشاعرها، فيمكن الكلام عن الثورة، ولكن لا يمكن صنع الثورة. دون هذا النوع من القيادة تبقى «الثورة» محصورة بفئات من المثقفين وبتجمعات هي اقرب الى النوادي الثقافية منها الى الحركات الثورية، وهذا كان فعلا مصير هذه الحركات التي جعلت من خصامها مع الناصرية قصدها الاول. ان الفقيد الكبير هو القائد الثوري الوحيد الذي استطاع ان يجذب مشاعر الجماهير، محبتها وولاءها بشكل ادخلها نهائيا الى العالم الثوري.

والان، وبعد ان خسرناه، ستحل الناصرية في جمهوريتها العربية المتحدة التي تقترن باسمه لمدة طويلة مكان شخصه في ممارسة قوة الجذب للجماهير الثورية، هذا الجذب الذي لا يمكن دونه لاية حركة ثورية ان تكشف عن فاعليتها. اننا لم نعرف في الماضي كيف نستخدم وجوده في تحقيق الدولة الواحدة، ورجائي هو ان يكون الولاء الفريد من نوعه في التاريخ – وأعني حرفيا ما اقول عند استخدام كلمة فريد – الذي اظهرته الجماهير العربية عند موته المفجع عبرة لنا فنصحح موقفنا في ضوئه، ونستخدم الناصرية بعد وفاته الاليمة بوعيثوري يصحح الموقف المنحرف السابق، ويقودنا الى الدولة الواحدة، بدلا من مناوأتها كما فعلنا في الماضي. ان عجزنا عن ذلك، وهو عجز قد يقضي نهائيا على امل تحقيق الدولة الواحدة، فان المؤرخ في المستقبل قد يرى عندما يرجع الى هذه المرحلة بان اعظم كارثة منينا بها قد لا تكون نكبة ١٩٤٨ او هزيمة ١٩٦٧، بل عجزنا عن الافادة من قيادة الفقيد الكبير في تحقيق هذه الدولة.

لقد كانت الناصرية اول ثورة عربية استطاعت ان تحركالجماهير العربية تحريكا ثوريا عبر الوطن العربي، تدفعها نحو الثورة الاجتماعية، وتجعل فكرة هذه الثورة جزءا من تصورها السياسي لذاتها، كما انها كانت الثورة الاولى والوحيدة التي استطاعت ان تربط فكرة هذه الثورة بالدولة الواحدة، وأن تبلورها بلورة وحدوية في ذهن الجماهير.

قبل الناصرية كانت الحركة العربية «الثورية» تبشر بمقاصدها الثورية من دولة واحدة وثورة اجتماعية، وتقتصر اساسا على اعداد وتجمعات محدودة متنافرة. الناصرية غيرت هذا الوضع تماما، فكانت ليس فقط الثورة الاولى التي اعتمدت الجماهير، واستطاعت ان تحركها في اتجاه ثوري ثابت وتتخذها قاعدة لها، بل كانت الثورة التي سمحت لتلك التجمعات بأن تتصل بالجماهير وتجد صدى لديها.

في الناصرية قامت لاول مرة في التاريخ العربي الحديث دولة ثورية قصدها الاول ان تكون صوت الجماهير وأداة الجماهير وفي خدمة الجماهير. ولاول مرة في هذا التاريخ دخلت الجماهير سيدة الى المسرح السياسي، تحاول ان تحققارادتها وتخلق نظاما يمثل هذه الارادة والمصالح التي تبغيها هذه الارادة. ولكن على الرغم من ذلك قامت فئات لم تستطع ان تحقق شيئا ونظم «ثورية» ترجع في ولادتها نفسها اليها، الى الجو الجديد الذي خلقته، الى الانتصارات التي سجلتها، الى المساندة التي وفرتها، والى المظلة الوقائية التي قدمتها، قامت هذه الفئات والنظم بمحاربتها، وانشغلت بهذه

المحاربة عن الاهتمام بمقاصدنا الثورية وفي طليعتها الوحدة وتحرير فلسطين ، ولكن الانكى من ذلك انها كانت دائما نصنع ما تصنع باسم الجماهير ، وولاؤها للجماهير ، وولاء الاخيرة لها .

ومن الغريب ان تقوم هذه الفئات والنظم فتحاربها بذلك المنطق المبتور او ان تقاومها باسم بعض نقاط الضعف والاخطاء والعجز فيها، وهي التي تتخبط تخبطا جامعا بالاخطاء والعجز والضعف . كم من السهل ان يعبر المرء عن «ثورية» ما عن طريق المزايدة اللفظية ، عن طريق سلبي يقتصر على الاشارة الى نقص او خطأ ، او مجردات لا تكلف صاحبها شيئا حتى الجهد الفكري !..

كانت الناصرية اول ثورة عربية اجتماعية ، وانتصارها وفر قوة دفع لتحركات مماثلة ، فاصبحت كل ثورة اخرى تجد الطريق مفتوحا امامها ، وتستطيع تحقيق ذاتها بسهولة كبرى نسبيا ، بسهولة كانت تستحيل عليها اولا الناصرية .

اليسار العربي كان عاجزا طيلة وجوده عن تفجير اية ثورة قبل ظهور الناصرية . هذا جعل فاعليته ونموه يرتبطان بنوع الصلة التي ينسجها معها ، لانها هي التي حملت اولا الثورة الى الواقع ، وجعلتها واقعا حيا بين الجماهير . لهذا ان كانت العلاقة ايجابية استطاع هذا اليسار ان ينمو وان يمارس فاعلية مستمرة ، وان هي كانت سلبية، حكم على نفسه بالانكماش والضمور ، وبعمل جانبي على هامش التاريخ، لان الجماهير كانت تعطي ولاءها لهذه الثورة ولقيادة عبدالناصر بالذات، وعلاقة سلبية من هذا النوع نفصل بين هذا اليسار وبين هذه الجماهير ، وهو فصل لا يمكن فيه لاية حركة ثورية ان تكون فعالة ، او ان تساهم مساهمة جدية في صنع الثورة العربية ، او حتى ان تكون ثورية . هذا ما حدث فعلا ، ونظرة واحدة على الخمسينات والستينات كافية للتدليل على ذلك . فاشكال هذا اليسار كانت تنمو وتؤكد ذاتها عندما كانت تعمل مع الناصرية ، وهي كانت تخسرفاعليتها وتدور في حلقة مفرغة عندما كانت تتحول عنها الى العمل ضدها، لان العمل ضدها كان يعني ، وهو لا يزال يعني في المرحلة الحالية ،علاقة عكسية مع التاريخ كما يصنع ذاته حاليا في هذه المرحلةالانتقالية التي نعانيها .

***

ان المواقف المتعددة التي اتخذها هذا اليسار « الانفصالي » « الجديد » في خصوماته مع الناصرية لم تكن فقط تدل على فقدان الوعي الثوري . بل كانت في الواقع مزايدات غير مسؤولة ونوعا من المهاترة والتهريج .

وهذا يصدق على اولئك « الناصريين » الذين ظلوا يمارسون التقديس والتهليل ، والتبجيل والمديح الفريد حتى عام ١٩٦٨ ، اي اكثر من عام بعد هزيمة حزيران . فقسم كبير من هؤلاء استرسل في هذا التقديس الى درجة انكر فيها حتى ان تكون حرب حزيران هزيمة للعرب او لعبدالناصر ! وبين ليلة وضحاها اخذ هؤلاء يشتمون ويذمون وينكرون نفس المنجزات والقيادة التي كانوا يقدسون كل التقديس طيلة اثني عشر عاما!..وذلك دون اية فترة انتقاليةيقومون بها بنقد ذاتي ويعترفون فيها بقصورهم وخطأهم وعجزهم ومسؤوليتهم عن الهزيمة نفسها ، الهزيمة التي شاركوا فيها لانهم لم ينبئوا بها وله يحذروا ، لا من بعيد او من قريب ، بانه يجب ان لا ندخل في معركة مع اسرائيل في تلك الاوضاع ، او ان معركة من هذا النوع ستكون خاسرة . دون اي شيء من هذا انتقلوا الى موقفهم الجديد بنفس الثقة المطلقة بما يقولون ويقدمون ، يتكلمون بنفس« السلطة الفكرية » السابقة ، وكأن مفتاح المعرفة ، كل المعرفة ، بيدهم ، او كأنهم هم وحدهم يدركون الحقيقة ، كل الحقيقة ، التي تعبر عن الواقع العربي الثوري !. موقف يدعو ، في الواقع الى الشفقة !.

وجه المأساة في هذه الظاهرة هو ان مواقف فجة من هذا النوع كانت ولا تزال تجد من يقبلها بين « المثقفين » (؟) العرب ، بين مثقفين لا يفترض فيهم فقط حد ادنى من الوعي الفكري ، بل من الثورية الواعية . هذا ان دل على شيء ، فانه يدل ، فيما يدل عليه ، على انحلال الذات العربية انحلالا نتج عنالمرحلة الانتقالية التي نمر بها، الا وهي مرحلة تفرض كمعالجة لذاتها بروز ذات جديدة لم تبرز بعد، وعلى ان المشكلة العربية الاساسية هي اساسيا ، كما حاولتالتدليل على ذلك في كتبي ، ولادة العربي ولادة جديدة نجدد من الجذور الابعاد العقلية والنفسية التي تحدد سلوكه في الحياة وفي التاريخ . في كتاب « من النكسة الى الثورة » ذكرت ان الحركة العربية الثورية ضربت بشرور جسام ، ولا اكون مبالغا ان قلت بان الامية الفكرية تأتي في الطليعة . ولكن هذه الامية « الجديدة » هي انعكاس لعطل اكبر واعمق وهو ان تلك الولادة الجديدة في تصور ايديولوجي انقلابي جديد لم تتم بعد . لذلك كانت، كما حاولت ايضاح الامر في الكتاب نفسه ، جميع اقتباساتنا الحضارية الجديدة ، من السيارة الىالمفاهيم الثورية ، اقتباسات خارجية لا تنزل الى اعماق الذات العربية . فهي اقتباسات تعبر ، اما عن ذات لا تزال تقليدية في اطاراتها النفسية والعقلية اللاواعية ، واما ذات تعيش في فراغ باطني لانها خسرت هذه الاطارات التقليدية ولم تستطع بعد احلال اطارات جديدة تنسجم مع عقلية القرن العشرين او مع المفهوم الثوري الذي تتبناه ، فتبقى العقلية قشرة خارجية ، ويبقى المفهوم مفهوما لفظيا هامشيا يدل على نفسه بالتخريجات اللفظية والتبشيرية . لهذا كان النفس القصير – وفي الناصريين السابقين نجد مثالا واضحا عنه – السمة الاولى التي تميز مواقفنا الثورية ، وذلك لان الوحدة الذاتية التي توفر النفس الطويل مفقودة .

***

هذه ملاحظات عجلى تدور حول الطابع الاساسي العام الذي يميز اخصام الناصرية « الثوريين » من الناصريين السابقين ، اردت منها فقط التدليل على ان طبيعة هذا الطابع هي طبيعة انفعالية ، تدور حول المزايدة والتبشير والفكر الشعائري ، وليس الفكر العلمي الموضوعي ، او الوعي الثوري الصحيح الذي يغذي كل التزامثوري خلاق . لذلك لم يكن غريبا ان نرى ان المواقف التي تتفرع عنه ، وبالاخص تلك التي تتناول الناصرية ، تتسم بنفس السمات . والامثلة التالية التي اذكرها بسرعة على سبيل التمثيل وليس الحصركافية في التدليل على ما اعنيه .

هؤلاء الناصريون السابقون يقولون مثلا ،في « ردتهم » ، ان الناصرية ليست اشتراكية ، لان الاشتراكية التي نعمل لها جاءت من فوق ، كانت منحة ، والاشتراكية لا تأتي عن هذه الطريق ..

انني لا اريد مناقشة هذا القول في ضوء منجزات الناصرية ، ما لها وما عليها في هذا الصعيد ، ولكن في ضوء ما يعنيه بالنسبةالى الناصرية كثورة . انه قول يعني ان الناصرية كانت يجب ان لاتحدث. لانه لم يكن هناك التنظيم الشعبي السابق او الحزب الثوري الصحيح الذي يمكن له اجراء التحويل الثوري . هذا بدوره يعني ان مصر كانت يجب ان تبقى كما كانت عام ١٩٥٢ ، مزرعة لملك ماجن ، ولطبقات اقطاعية وبورجوازية مستهترة منحلة ، وقاعدة للاستعمار فيافريقيا واسيا ، الى ان يقوم ذلك الحزب او التنظيم بالثورة .

ولكن بما ان هذا « الحزب » لم يستطع ان يحدث اية ثورة اشتراكية ليس فقط في مصر ، بل في اي قطر عربي ، بل في اي بلد اسيوي ، ما عدا الصين وفيتنام وكوريا الشمالية ، وذلك بسبب اوضاع تختلف تماما عن الاوضاع التي يفكر بها هؤلاء عند الحديث عن هذه الطريق ، فان هذا النقض للناصرية يعني ، في تسلسله المنطقي ، ان بقاء مصر كما كانت عام ١٩٥٢ افضل من تغيير واقعها ذلك عن طريق الناصرية ، وما جاءت به وغذته من تحولات في

مصر والوطن العربي . هذا هو نوع المنطق الذي ينتهي فيه عادة ما اسماه لينين باليسار الطفولي !..

مناقشة او نقض الوقائع المتحولة في حركة او مرحلة ديناميكية باسم اخلاقية جامدة ، او باسم موقف عقائدي ثبوتي ، ليس من العلم في شيء ، وهو من ناحية ثورية ، قد يضر اكثر بكثير مما يفيد . القول بان تلك او هذه الثورة لا اخلاقية ، لا اشتراكية ، غير ثورية، اوتوقراطية ، او بكلمة اخرى لا تحقق ذاك او هذا الانموذج او التصور الثوري . قول سخيف ، ويعني في الواقع انه من اللااخلاقية،واللاثورية ان نغير وضعا قديما بوضع جديد ان لم يحقق الاخير تصورا معينا عن الثورة . هذا ينفي ، في الواقع ، ثورية اية ثورة تاريخية ، لان ليس من ثورة استطاعت ان تحقق التصورالذي انطلقت منه . التفكير حول الواقع الثوري باسم مجردات ومفاهيم وتصورات لا تنعكس في الواقع ، بدلا من مواقف تتصل به وتعانيه ، هو خروج على ذلك الواقع وانحراف عنه ، وعن الديالكتيك الثوري ذاته .

لا شك ان اشتراكية الناصرية تنطوي على عجز ونقص ومطارح ضعف اساسية ، ولكن القضية قضية نسبية ، يجب ان تقاس فيضوء اشتراكيات اخرى عبرت وتفرعت عن اوضاع مماثلة ، وليس في ضوء مقاييس مطلقة مجردة ، او في ضوء اشتراكيات اخرى عبرت وتفرعت عن اوضاع تختلف جذريا عن الاوضاع التي مهدت لها ورافقتها .

المفهومالتقليدي للدولة، وهو المفهوم الذيقالبه هيجل ايضا،كانيرى ان الدولة هي القوة التي تحدد المجتمع ، ولكن المفهوم الماركسي – وهؤلاء الخصوم هم في معظمهم من الماركسيين .. عفوا اردت ان اقول من المتمركسين – يقول بان المجتمع هو الذي يحدد الدولة .

ماذا يعني هذا القول ؟.. انه يعني فيما يعنيه ، وبشكل بديهي انه عندما تعجز الدولة عن تجسيد معنى ثوري معين ، او في ممارسة دور فعال في خدمة مقاصد تبنتها ،يجب ان يتطلع المفكر الى الوضع الاجتماعي القائم فيفتش فيه عن اسباب التناقض ، فلا يجعلها نتيجة لشخصية القائد او حتى لطبيعة الدولة ونظامها .

واخيرا ، فيما يتعلق بهذه الناحية ، يمكن القول انه مناهم ميزات الاشتراكية ، تدمير سلطة ومركز الطبقات التقليدية المستغلة، تحرير الجماهير المستغلة من اشكال الاستغلال ، تحسين اوضاع الفرد المعاشية ، ومن ثم تحريره نهائيا من كل شكل من اشكال البؤس والفقر، تحقيق العدالة السياسية والاجتماعية ، توفير الكرامة الانسانية لكل فرد ، تحقيق روح جماعية من التعاون والاخوة بين الشعب .

لا شك ان الناصرية لا توفر لنا صورة مثلى او عليا عن هذه المنجزات ، ولكنها عملت اكثر بكثير من اية ثورة عربية اخرى في هذا السبيل ، وعلى الرغم من تكاليف معركة تحرير فلسطين التي تحملتها لوحدها ، وتكاليف الثورة العربية التي دعمتها في الجزائر الى اليمن ، فان الناصرية قطعت فيهذا الطريق اشواطا لا تزال بعيدة عن متناول اية ثورة عربية اخرى ، بله اية ثورة اخرى في العالم الثالث ، ما عدا كوريا ، وفيتنام والصين وكوبا .

هؤلاء الناصريون السابقون يعترضون ايضا على الناصرية بانها ذات قيادة « فردية »هذا الاعتراض ، وان جارينا هذا « المنطق » فافترضنا جدلا بانها كذلك ، هو اعتراض مجرد وتبشيري . فليس هناك من طبيعة واحدة تتفرع منها جميع اشكال القيادات « الفردية » ، او تفرض معنى واحدا عليها ، كما ان ليس هناك من اوضاع واحدة ثابتة تفرض علاقة واحدة بين هذه القيادات والوسط السياسي . فالقيادات وطبيعة علاقتها بالاوضاع المحيطة بها تتغير ، فايتقييم لاية قيادة ثورية يجب ان يتم على ضوء هذه العلاقة .

القيادة الثورية ، بقطع النظر عن تركزها في فرد او لجنة،تكون قيادة ديمقراطية عندما تكون امتدادا لارادة ومشاعر الجماهير ، للشعب ككل ، وللقوى الجديدة الفاعلة في التاريخ ، وهي تكون اوتوقراطية عندما لا تمثل ذلك ، وان كانتمن لجنة تشكل من عشرات يتساوون مساواة تامة كاملة فيكل شيء . ولا يتخذ احدهم خطوة واحدة دون اجماع تام بينهم . من ناحية اخرى ، يمكن القول ان«كل تنظيم موقت للدولة يفرض ، بعد قيام الثورة ، ليس دكتاتورية فقط، بل ديكتاتورية نشيطة ايضا (٢)

الديمقراطية لا تعني فقدان التركيز او السلطة الثورية المركزة، بل تعني في وضع ثوري كالذي نمر به، وجوب تعبير هذا التركيز عن ارادة الشعب فيكون امتدادا لسيادة الجماهير . ليس هناك فيالتاريخ الثوري من قيادة ثورية حققت هذا الشرط اكثر من القيادة الناصرية ليس هناك في التاريخ الثوري من جماهير دللت على هذه العلاقة عندما جابهت امكان ابتعاد قائدها عن القيادة (٩و١٠ يونيو)او عند خسارة قائدها ، كما دللت الجماهير العربية .

هؤلاء الناصريون السابقون كانوا يرددون ان ظاهرة ٩و١٠ يونيو كانت نتيجة المفاجأة ولان الجماهير لم تكن تعي بعد ابعاد الهزيمة ، وانها بعد ذلك نزعت ولايتها عن عبدالناصر ! هذا هو نمط الفكر « العلمي » الذي يمارسه هؤلاء !. ولكن هل اعتبر هؤلاء بتلك الظاهرة الشعبية الفريدة في التاريخ ، التي كشفت عنها وفاة الفقيد الكبير ، فاذا بهذه الجماهير التي قالوا عنها بانها خسرت ولاءها لعبدالناصر ، تعاني بعشرات الملايين وفي كل مكان من الوطن العربي موجة الم وحزن عميق لم يعرف التاريخ شيئا يماثلها ؟ كلا طبعا !. فهؤلاء يسخرون ، دون اي شعور باي حرج ، يتكلمون ويتحدثون « بسلطة » فكرية مطلقة ، وكأنهم هم الوحيدين الذين يدركون الواقع وتحولاته !. شيئا من الحرج ان لم يكن من الخجل !

هذا النوع من المزايدة ، من اتهامالحركات الثورية بالفردية كان في الواقع ظاهرة تعيد ذاتها باستمرار في تجارب التاريخ الثورية . « ففي جميع الحركات الثورية الكبيرة ، في جميع الثورات الناجحة نرى دائما هناك اتجاهات وفئات عجزت عن مجاراة المجرى الثوري الاساسي ، وعن التجاوب مع ديالكتيكية العام ، فكانت تلتقي جميعها بمحاربة هذا المجرى من مواقفها الجانبية باسم الحرية او الديمقراطية المجردة ، وباسم مقاومة الاتوقراطية والبيروقراطية (٣) . اما ماركس وانجلز فيكتبان :« من السخافة اذن ان نتكلم عن مبدأ السلطة كشر مطلق ، وعن مبدأ الاستقلال الفردي كخير مطلق . فالسلطة والاستقلال الفردي هما من الامور النسبية ، يتغير صعيدهما بتغير مراحل التاريخ » (٤)

هذا هو نمط النقد والنقض الذي مارسه هؤلاء الناصريونالسابقون ضد الناصرية . فموقفهم كان يتفرع باستمرار من عموميات ، وتجريدات ، وفكر شعائري ، من مزايدات ومهاترات ، وفي كثير من الاحيان من انفس موتورة مليئة بالحقد والضغينة . فهم مثلا ينتقدون طريق الناصرية الى الوحدة ، ولكن دون ان يدلوا على اي طريق خاص بهم ، او دون اية قدرة على ممارسة ما قد يعلنون عنه من طريق ! وهم ينتقدون منجزاتها ، ولكن دون تقديم اية منجزات اخرى تتقدم عليها او تماثلها او تحل محلها !. وهم يدلون على النقص فيها ليس بغية التصحيح ومساعدتها على تجاوز ذاتها بل دعوة في العداء لها ونقضها !. وهم يشيرون الى اخطائها ولكن دون القدرة على ابراز اي نظام خلفوه استطاع ان يتجاوز هذه الاخطاء !..

لقد كتب لينين مرة :« النقطة الاساسية الان هي واجبالطليعة الثورية ان لا تتردد .. في تثقيف ذاتها وفي الاعتراف بانها غير معدة

---

2 - Lenin : Selected Works , Foreign Language Publishing House , moscou . 1960 Vol . I . P . 589

3 - Ibid , P . 462

4 - I/arp , Engels : Selected Works , Moscou ,A 62 , Vol I. P. 38

كفاية ، وتنقصها الكفاءة الضرورية » (٥) كما يحتاج هؤلاء الناصريون السابقون ، واكثريتهم من « الماركسيين » المحسوبين على الماركسية، الى التأمل بهذه العبارة والعمل بوحيها !..

***

اثناء ناصريتهم لم يكن هؤلاء الناصريون السابقون يختلفون في موقفهم ذاك او في الفكر الذي عبر عنه ، عما هم عليه الان موقفا وفكرا ، ما اعنيه هو ان الفكر الذي عبر عن ناصريتهم انذاك كان هو ايضا فكر تبشير ، وعموميات ومزايدة وشعائر . فهم في دعوتهم الى الارتباط بها في ذلك الدور ، كانوا يطرحون قضية الارتباط على صعيد التبشير والشعارات ، اي دون الانطلاق في الدعوة الى الارتباط في نظرية علمية ثورية يشتقونها من تجارب التاريخ الثورية والوحدوية من طاقات الواقع العربي ، ومن ادراك صحيح لديالكتيكه الثوري والامكانات التي يمكنه الكشف عنها ، اي ان الارتباط كان يتحرك بطريقة عفوية ، دون ان توفر له نظرية تنقله من هذا الصعيد الى صعيد الوعي الثوري الذي يتفرع من نظرية شاملة لتلك التجارب ، لهذا الواقع وديالكتيكه ، لذلك هم بالغوا أشد المبالغة بفاعلية الناصرية الثورية ، وضخموا دورها اكثر بكثير مما نسمح به الطاقات المتوفرة لها ، كما انهم ضخموا دور عبدالناصر فجعلوه اضعافا مضاعفة فوق طاقة اي انسان . اذ جعلوا التاريخ والاجتماع شبه عجينة في يده يستطيع ان يصنع بهما ما يشاء . لهذا لا اكون مبالغا عند القول بان معظم هؤلاء كانوا دون ان يدروا اعداء الناصرية حتى اثناء الدعوة لها والى الارتباط بها .

والان ماذا نرى ؟.. نفس الشيء يعيد ذاته في موقفهم من المقاومة الفلسطينية . هنا ايضا نرى نفس الفكر الشعائري، نفس الاعتماد على المزايدات والعموميات والتخريجات اللفظية ، خطوط نظرية « وتنظيرات عامة » قد تؤثر في فكر مراهق وتجذبه ولكنها دون صلة حية مع الواقع ، هنا نرى نفس التضخيم لدورها ، وهو تضخيم اصبح يكشف ضرره بها ، وهو ضرر قد يكون اشد من الضرر الذي الحقه بثورة ٢٣ يوليو والناصرية ، ان اشد مطارح الخطر في هذا التضخيم هو تقديم المقاومة المسلحة كثورة تحل محل ثورة ٢٣ يوليو وتتجاوزها ثوريا ، تحل محل الجيوش « النظامية المحترفة » وتحرر فلسطين كلها في حرب شعبية على غرار ما حدث في الصين والجزائر وخصوصا في فيتنام . القصد هو تقديم الثورة الفلسطينية كبديل يتجاوز الناصرية ، كالثورة الجديدة التي تلغي بارتباطنا بها جميع ارتباطاتنا السابقة .

يا حبذا لو ان المقاومة تستطيع ان تمارس هذا الدور !. يا حبذا لو انها تستطيع نقلنا الى صعيد جديد نتجاوز فيه انحرافات وضعف وخلل تجاربنا الثورية الماضية !. ولكن امالنا يجب ان لا تعمينا عن واقعنا وامكاناته . ان اية درجة من الوعي الموضوعي الثوري للواقع كافية في الكشف عن عجز موقف كهذا الموقف وفي رؤية الخطر الذي يشكله على المقاومة نفسها . ولكن ما الفائدة !. فالواقع لهؤلاء في مرحلتهم الناصرية كان نهائيا وبشكل لا واع العقلية التي ما زالت جزءا من ذات الوجود العربي التقليدي التي تعتمد البطولة والبطل في تفسير ما يحدث في التاريخ . البطل سقط في هزيمة حزيران ، فأخذت العقلية تفتش عن بطل جديد فوجدته في العمل الفدائي . لذلك لم تكن الدعوة الى هذا العمل تعبيرا عن وعي ثوري موضوعي لواقعه ، الاوضاع الموضوعية التي تحيط به والديالكتيك الثوري الذي تتكشف عنه ،بل عن نفسية لا ترتاح او تستكين دون عبادة بطل وبطولة . ان الاطار التبشيري، الاخلاقي ، الميتافيزيقي الذي يعمل فيه هذا الفكر يدفع دائما الى عبادة الارادة ، البطولة

5 - Lenin , op . cit . Vol 3 , P, 766

والبطل مهما تشدق لفظيا بالعلمية والمنهج العلمي .

الاشارة الى النقاط التالية كافية في ايضاح ذلك :

١ – ان الاوضاع الموضوعية منجغرافية وديمغرافية واستراتيجية لفلسطين،واوضاع الاحتلال بالنسبة للارض المحتلة تختلفجذريا وبشكل تام عن الاوضاع التي ظهرت فيها الحرب الشعبية في الصين ، والجزائر وفيتنام ، وهي لا تسمح بتحول العمل الفدائي الى حرب شعبية .

لقد تعرضت لهذه الناحية في حديث مع « مواقف » سيظهر في عدد ١٢ ، ولذلك فانني اعيد القارىء اليه في ايضاح ما اعنيه ، واكتفي هنا بالاشارة فقط الى هذا الواقع .

هذا لا يعني انه ليس هناك من دور ثوري فعال يمارسه العمل الفدائي ، لا يعني التقليل من اهمية الثورة الفلسطينيه القصوى واهمية ارتباطنا والتزامنا الاساسي بها ، ولكن يعني دورا اخر لها هو غير الدور الذي تريده بعض فصائل اليسار لها . في الحديث الانف الذكر تعرضت ايضا الى هذه الناحية .

٢ – هذا الموقف التبشيري ، والثوري « اللفظي » يدعونا انتعرف على الكفاح المسلح لاول مرة في الثورة الفلسطينية ، وهو بذلك يتجاهل تماما اننا تعرفنا على هذا الكفاح قبل هذه الثورة ، وذلك في ثورة الجزائر واليمن الجنوبية .

هذا التجاهل يعود الى توكيد هذا الموقف على الكفاح المسلح طريقا لخلق « الثورة الصحيحة » . ولذلك فهو يتجاهل تجارب من هذا النوع لم تؤد الى هذه « الثورة » . هذا لا يعني طبعا ان هذا التوكيد غير صحيح ، فهو صحيح ولكن بشكل مشروط . ولذلككنت من اول من اكد عليه في كتبي المختلفة ، ابتداء من « الايديولوجية الانقلابية » عام ١٩٦٤ ، وخصوصا في كتاب « من النكسة الىالثورة» ولكن صحته غير كاملة ، فهو ضروري ولكنه غير كاف في خلقتلك الثورة ، وكي يقوم بهذا الدور يحتاج الى شروط اضافية عديدة منها مثلا تصور ايديولوجي انقلابي جديد للتاريخ.

ثم ان هذا الموقف يدعونا من ناحية اخرى « ليس الى العمل الفدائي كطريق الى ثورة جديدة صحيحة ، بل الى المقاومة نتعرف فيها لاول مرة على الثورة ، وذلك على الرغم من ان المقاومة لا تزال متأخرة حتى الان ايديولوجيا وتنظيميا وثورية اجتماعية ، وعسكريا وحتى استراتيجيا عن ثورة ٢٣ يوليو الناصرية . المقاومة لا تستطيع انتقدم نفسها بديلا عن الناصرية دون ان تبرهن على تقدمها عليها في هذه الاصعدة .

العمل الفدائي لا يزال في فلسطين المحتلة ، وبعد مرور خمس سنوات ، عملا فدائيا وعملا فدائيا محدودا انه لم يتطور الى حرب شعبية او حتى الى حرب عصابات . هذا يعود طبعا ليس الىنقص في المقاتل الفلسطيني، بل الى الاوضاع الموضوعية التيتحيط بالارض المحتلة ، والتي لا تسمح على غرار فيتنام مثلا بممارسة كفاح مسلح مماثل ، فنوعية هذا الكفاح لا تتفرع مباشرة من عناصر ذاتية فيالقاتل، بل من علاقة ديالكتيكية بين هذه العناصر والاوضاع الموضوعية التي تحيط بالاحتلال وبالارض المحتلة .

هذا التضخيم لدور المقاومة بشكل يتجاهل هذه الاوضاعالموضوعية ابتدأ يعزز – وهنا الخطر الذي يجب ان نتلافاه بكل ما اوتينا من وعي وجهد – انعكاسات سلبية بين الجماهير والمثقفين ، لانهم لا يرون ان المقاومة تمارس الدور الذي اضفاه عليها هذا الموقف التبشيري الشعائري . انني على سبيل التمثيل اورد هنا اخر الاحداث التي ساهمت في هذه الانعكاسات ، اي المؤامرة المجرمة على العمل الفدائي ومحاولة تدميره بتلك الوحشية اثناء الصيف الماضي. فقد سمعت اكثر من مرة من يقول لي بنبرة يائسة : ما هذا؟.. الفلسطينيون يشكلون خمسين بالمائة من الجيش الاردني ، فلماذا لم

– التتمة على الصفحة – ٧٥ –

الناصرية ومقاصدنا الثورية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٢ ـ

ينضموا الى الفدائيين في مقاومتهم لتلك المؤامرة ؟.. لماذا بقوا في الجيش يساهمون فيها ؟..

السبب لا يعود ، كما تخيل هؤلاء ، الى قصور ذاتي محض في الجندي الفلسطيني ، بل الى الاوضاع الموضوعية التي تحيط بالعمل الفدائي . فعندما يتطلع هذا الجندي الى هذا العمل فلا يرى انه يمارس « الدور المستحيل » الذي يفترض فيه تبعا لهذا الموقف التبشيري الشعائري ، اي دور التحرير أو دور الحرب الشعبية ، على غرار فيتنام او الجزائر ، فانه لا يجد فيه قوة الجذب التي يمكن ان تجذبه اليه ، لان واقعه منفصم عن هذا « الدور المستحيل » .

عند المقارنة مع الحرب الفيتنامية الشعبية ، نرى انه تبعا لاحصاءات وتقديرات اميركية كان هناك ما يقل عن معدل عشرة الاف جندي يتركون شهريا ، جيش فيتنام الجنوبية ويلتحقون بالفيتكونغ . الفرق هو ان الاوضاع الموضوعية التي تحيط بهذه الحرب في فيتنام تختلف اختلافا جذريا عنها في فلسطين ، وهي تسمح بفاعلية ضد المحتل لا تنفتح لها ابدا اوضاع الاخيرة ، وليس لان الجندي الفلسطيني اقل استعدادا للكفاح المسلح او اقل شوقا لتحرير فلسطين . انني شخصيا اعتقد ، لاسباب عديدة لا مجال للخوض فيها هنا ، ان هذا الاستعداد موجود في الجندي الفلسطيني اكثر من الجندي الفيتنامي في جيش جنوبي فيتنام ، ولو ان الاوضاع الموضوعية التي تحيط بالاول كانت مماثلة لتلك التي تحيط بالثاني ، لما كان هناك جنود فلسطينيون يؤمرون او حتى جيش اردني يمكن الايحاء له بمقاومة الفدائيين .

هذا الموقف التبشيري الشعائري يطلب منا ايضا الاعتراف بان الاطار الفلسطيني كان الاطار الوحيد الذي خرجت منه قيادات ثورية ترتبط ارتباطا عضويا بالجماهير . هكذا ، بشطحة قلم ، تزول اهم تجارب العرب الثورية الحديثة ، في الجزائر ، في اليمن الجنوبي ، وفي الخليج ، وفي مصر . فقبل الاطار الفلسطيني ، واكثر منه بكثير خرجت من الاطار الجزائري قيادات ثورية ارتبطت ارتباطا عضويا بالجماهير وبشكل لم تحققه بعد المقاومة الفلسطينية . نفس الشيء تقريبا يقال ايضا عن ثورة اليمن الجنوبي . وعن المقاومة الدائرة الان في بعض انحاء الخليج . اما قيادة عبدالناصر بالذات فقد حققت هذا الارتباط العضوي بشكل لا يماثلها فيه ، عن قريب او بعيد ، اي ارتباط اخر . الجماهير الفلسطينية نفسها كانت تشعر بهذا الارتباط اولا مع قيادة عبدالناصر وليس مع اية قيادة اخرى .

وقبل وفوق كل شيء ، يدعونا هذا الموقف التبشيري الشعائري الى التمثل بتجربة فيتنام كانموذج تحتذيه الثورة الفلسطينية ، وتعيده في فلسطين . الخ . ولكن دون اي وعي لعلاقة هذه التجربة بالاوضاع الموضوعية التي ترتبط بها ، والى غياب هذه الاوضاع الموضوعية غيابا تاما مطلقا في فلسطين ، التجربة الفيتنامية ، كحرب شعبية ظافرة ، لا تتفرع مباشرة من الفيتنامي كانسان ذي كفاءات طبيعية فيه ، بل تتفرع من علاقته مع اوضاع موضوعية ، تاريخية وسياسية ، وبشكل اخص جغرافية ديمغرافية استراتيجية معينة .

٣ ـ هناك قسم من هؤلاء الناصريين السابقين يحارب ثورة ٢٣ يوليو الناصرية باسم « طفولية » غريبة ، وهو يريد ايضا توجيه المقاومة في ضوئها . فالبورجوازية الصغيرة اصبحت الشر الوحيد . مصدر كل شر في الناصرية وفي المقاومة ، مصدر كل انحراف وكل خطأ وضعف . فهي الشيطان الجديد الذي حل محل شيطان المسيحية والاسلام في تفسير الشر ووجوده في العالم .

المجال لا يتسع لمناقشة معضلة لهذا « المفهوم » (؟) الذي يكشف بوضوح هنا ايضا ، عن الطبيعة المثالية ، التبشيرية ، الشعائرية ،

والفن المصري المعاصر ، وفي الاغاني والرقصات ، وفي احياء التراث الشعبي في الريف .

ملك اسمه الفلاح

ويطول الحديث اذا اردنا ان نعرض ونناقش ونقيم تقييما نقديا كل ما حققه جمال عبدالناصر للفلاحين ، وكل ما بلوره ـ وهذا له اهمية تاريخية كبرى ـ من امال في نفوسهم . ولكن من غير المختلف عليه ان الاصلاح الزراعي المصري هو من انجح الاصلاحات الزراعية في البلاد الفتية لانه امكن تنفيذه ، فعلا ، بعد صدوره كتشريع ، بينما لا يزال الكثير من الاصلاحات الزراعية مجرد قوانين لم يتم تنفيذها حتى الان رغم صدور بعضها قبل تشريع الاصلاح الزراعي في مصر .

كذلك ، فانه من غير المختلف عليه ان الزعيم الراحل جمال عبدالناصر قد عمل ، فعلا ، على تحرير الفلاح من نير الاقطاع والسيطرة الاستعمارية ـ الاقطاعية ، سياسيا واقتصاديا ، وفتح الباب للتطور الاجتماعي في الريف ، كما مهد السبيل الى تطوير الانتاج الزراعي المصري وتخليصه من وحدة المحصول ، والى رفع مستوى الكفاءة الانتاجية والدخول في تجارب ما كان يجرؤ على الدخول فيها اي مالك كبير ، وذلك بهدف البحث عن طريقة لمواجهة التحدي الذي تمثله العلاقة بين زيادة السكان وزيادة الانتاج الزراعي .

ولقد قال عبدالناصر ، وهو يوزع ارض الاصلاح الزراعي في ٢٣ يوليو ١٩٥٣ ، وبعد عام واحد فقط من قيام سلطة الثورة :

«يسعدني ان ارحب بالفلاح وقد تحرر واصبح سيد نفسه ، من الناحية السياسية والاجتماعية . ويسعدني ان ارى الاقطاع وقد انهار الان . والاقطاع لم يكن ـ باي حال من الاحوال ـ امرا طبيعيا ، ولكنه كان محاولات للسيطرة بالقوة على النفوس الشريرة ، ومحاولات للاستعباد .

وجمال عبدالناصر هو الذي قال دائما للفلاحين انه ابن فلاحين مثلهم من « بني مر » وان اسرته لا تزال في « بني مر » في صعيد مصر ، تزرع وتفلح مثلهم .

وهو الذي رأى فيه الفلاحون دائما التجسيد الحي لآمالهم ومطالبهم وتطلعاتهم ، ورأوا فيه الزعيم الذي خلع الملك ، اكبر اقطاعي في البلاد ، لكي ينصب محله ملكا اخر .. اسمه الفلاح .

القاهرة — **ابراهيم عامر**

والميتافيزيقية ، التي تحدده . لذلك اكتفي ببعض الاشارات العاجلة.

(أ) ليس هناك اخطر من هذا الموقف الخارج عن الوحدة والدولة الواحدة ، عن الناصرية وثورتها ، باسم طبقوية ، ليست فقط غريبة عن واقعنا ، بل غريبة ايضا عن الماركسية - اللينينية ، ومضادة لها.

(ب) من السهل جدا الكشف عن حقيقة هذه الطبقوية الشعائرية وذلك بان يطلب من هؤلاء الناصريين السابقين تحديد ما يعنون بها. اي تحديد من هذا النوع يكشف رأسا عن متناقضات وتخبط هذا المفهوم.

(ج) اننا في المجتمع العربي لا نعرف الطبقات التي عرفها ولايزال يعرفها المجتمع الصناعي الغربي . فالولاءات الطبقية لا تحدد سلوك « الطبقات » والوعي الطبقي شبه مفقود . ان اشكال هذا الوعي وما رافقه من عنف واضرابات طبقية تعرفت عليها حركة العمال في اوروبا ، وحتى في الصين وروسيا قبل الثورة ، اشكال مفقودة لدينا، كما انها مفقودة ايضا تلك الطبقات الرأسمالية والبورجوازية الغربية التي تشرط وتحدد هذه الاشكال . ليس من قبيل المصادفة انه لم يوجد حتى الان حزب عمالي او فلاحي في الوطن العربي. فالانتماءات والولاءات النفسية والاخلاقية والاجتماعية ، التي تعودها العربي عبر قرون عديدة في التخلف والاستعمار ، والتي لا يزال يعانيها هي ولاءات محلية وطائفية ، قبيلية وعائلية . لهذا كان وجود قاعدة تتركز عليها الجهود الثورية العربية ، قاعدة تتجسد من ناحية رمزية في قيادة مشخصنة كما هي في الناصرية ، شرطا اساسيا في تجاوز هذه الولاءات والانتماءات المتخلفة وبلورة نفسية الوحدة ، لانها توفر نقطة التقاء واحدة وارضية مشتركية تتحدد وتنصهر المشاعر فيها .

(د) ارجاع كل نقص وضعف وخطأ في الحركة العربية الثورية ، في الناصرية او في المقاومة الى هذه الطبقية يبسط التاريخ والاجتماع ليس فقط بشكل مضاد للماركسية ، بل بشكل شعائري محرج لانه يتجاهل جميع اصعدة الاجتماع الاخرى ، جميع قوى التاريخ المتفاعلة مع هذه الاصعدة ، وعلاقتها مع التركيب الطبقي .

على سبيل المثال فقط ، اذكر ان ترسبات وموروثات الماضي مثلا تعطل امكانات الشعب العربي ، وتعطل ايضا فاعلية التحولات الثورية التي تحاولها الثورة ، على الرغم من ان هذه التحولات ستؤدي في المدى البعيد على الاقل الى خلق الاوضاع التي تزيل هذه الترسبات والموروثات اي حد كبير . ان التخلف الذي نعانيه لا يفسر بتاخرنا التكنولوجي او بعدم توفر التكنولوجيا الحديثة لنا ، فالمستوى التكنولوجي وحده لا يفسر التخلف ، لان هذا التخلف هو ايضا تخلف العقل والذات عن مجاراة المجتمع الحديث ، هو اطارات نفسية وعقلية لا تنطبق على هذا المجتمع . لهذا كان الفرق بين الانسان الغربي والانسان « المتخلف » اكبر من الفرق في تكنولوجيا الانتاج ، ولهذا لم نكسب حرب حزيران على الرغم من توفر الاداة التكنولوجية او الاسلحة الحربية .

ترسبات من هذا النوع هي التي دفعت لينين الى ان يكتب :

« ايها الرفاق ، ان الرأسماليين والمنظمين .. حتى في اكثر البلدان تقدما ، كانوا يحاولون لسنوات ، ولعشرات من السنين، ان يدرسوا وان يمتحنوا تجاربهم وتجارب غيرهم العملية ، فيصححوا ويغيروا ما بدأوا فيه ، ويتراجعوا ويصلحوا ما يصنعون مرات عديدة، كي يصلوا الى جهاز اداري يناسب تماما العمل الذي يقومون به . هذا ما كان يحدث في النظام الرأسمالي ، الذي كان يعتمد في العالم المتحضر على عادات وتجارب قرون عديدة ... اننا نبني في ارض جديدة تفرض جهدا طويلا مستمرا ، وصبورا ، في تجديد العادات التي ورثناها عن الرأسمالية والتي يمكن تجديدها فقط تدريجيا (٦) .

ثم يكتب في مكان اخر ، « كي يمكن لنا تجديد جهاز الدولة السياسي ، يجب علينا ، وبأي ثمن كان ، اولا ان نتعلم، ثانيا ان نتعلم ، وثالثا ، ان نتعلم ، وثم ان نحول دون بقاء ما نتعلمه حرفا ميتا او شعارا .. اننا منذ خمس سنوات ونحن في حركة يسودها الضجيج، نحاول تصحيح جهاز الدولة ، ولكن ذلك كان ضجة محضة دلت التجارب انه كان دون فائدة ، او بالاحرى عبثا ومؤذيا طيلة السنوات الخمس . هذا الضجيج خلق الانطباع باننا كنا نصنع شيئا ، ولكن في الواقع ، كان يعثر ادمغتنا ونظمنا (٧) .

ثم يكتب في مكان ثالث : « هكذا يجب» فيما يتعلق بجهاز الدولة، ان نستنتج الان من تجاربنا الماضية ، بانه سيكون من الافضل لنا بكثير ان نسير ببطء اكبر .... فجهاز الدولة السياسي هو في حالة يرثى لها ، هذا ان لم نقل في حالة تثير الاشمئزاز . لذلك يجب ان نفكر اولا وبعناية كيف يجب ان نواجه نواحي الضعف فيه ، ونذكر ان هذا الضعف يمتد بجذوره الى الماضي ، الذي وان انهينا سيادته، فاننا لا نسوده بعد ، كما انه لم يدخل بعد المرحلة التي يمكن اعتباره فيها طورا ثقافيا من الماضي البعيد » (٨)

الناصرية اداة - واداة مرحلية ، وبشكل خاص وحدوية ، على الرغم من ريادتها للثورة العربية - في خلق مجتمع جديد لا يجد في المجتمع العربي التقليدي مواد صالحة للبناء . فالعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية ، والاطارات النفسية والعقلية التي تسوده ، والقواعد الايديولوجية والفكرية التي ينطلق منها ، واسس السلوك السياسي والاقتصادي التي يمارسها الخ .. كلها تتسم بخصائص لا تنسجم مع هذا المجتمع الجديد الذي نريده ، لذلك فان المرحلة الانتقالية هي مرحلة طويلة تفرض نفسا طويلا .

هذه الطبقوية الشعائرية دفعت الياس مرقص الى ان يكتب في نقده لاراء الجبهة الشعبية الديمقراطية كما تعبر عنها في كتاب « حول العفوية والنظرية في العمل الفدائي ». ما يلي : « في كتاب « العفوية والنظرية في العمل الفدائي » تتخذ الاقتصادية الامبريالية ، شكلا كاريكاتوريا لا شبيه له كشكل كاريكاتوري في التجارب السابقة في تاريخ حركة العمال الماركسية » (٩)

(٤) المقاومة ، وان اصبحت اضعافا مضاعفة وعشرات المرات أقوى مما هي عليه لا يمكن ان تكون بديلا عن ثورة ٢٣ يوليو الناصرية ، لا يمكن أن تكون بديلا عن الجيوش النظامية . الاوضاع الجغرافية والديمغرافية والاستراتيجية للارض المحتلة ولعلاقة المحتل بها ، تجعل من غير الممكن تحول المقاومة الى حرب شعبية على غرار الجزائر او فيتنام ، تجعل من المستحيل عليها تحرير فلسطين او حتى جزء منها ، دون ان تتحول الى تشكيلات مماثلة للجيوش النظامية في معارك من نوع الحرب التقليدية .

المقاومة تستطيع ان تعثر استقرار ونمو الكيان الاسرائيلي ولكنها لا تستطيع الغاء هذا الكيان او تحرير فلسطين منه، دور المقاومة هو مساندة الجيوش النظامية ، والارتقاء عن طريق ممارسة الكفاح والقتال الى مستوى الحرب النظامية الفعالة .

(٥) ليس هناك ادل على الطبيعة الميتافيزيقية والتبشيرية والنفس القصير اللذين يجيزان هذا اليسار الفكري والسياسي من موقفه من الجيوش النظامية . فهذه الجيوش فشلت في حزيران ، فاذا به يسرع الى اعطائها ماهية ثابتة خالدة ، هي ماهية العجز ، دون اي تقدير لتفاعلها مع الاوضاع الموضوعية والتاريخ ، ومع الهزيمة نفسها ، وكيف ان هذا التفاعل نفسه يمكن ان يؤدي ليس بعيدا فقط ، بل قريبا ، الى تجاوزها لذاتها ولفشلها السابق .

فان هي فشلت عام ١٩٦٧ ، فذلك لا يعني كما قلت في مناسبات اخرى انها ستفشل عام ١٩٧٧ ، عام ١٩٨٧ ، او عام ٢٠٠٧ الخ .

القوى الاساسية الثابتة التي تسمح ببناء جيوش قوية هي المساحة الجغرافية الواسعة ، القوى البشرية ، والمواد الاولية . وهذه كلها

٦ - Lenin : op . cit . Vol , 3 , P. 579

(٧) Ibid : Vol , 3 , PP , 831 , 830

(٨) Ibid , P. 829

(٩) راجع مواقف ، عدد ١٠.

متوفرة لنا. اما الاسباب الاخرى وهي العقلية الحديثة، التكنولوجيا، العلم ، لتدريب ، وممارسة القتال ، فهي امور يمكن نيلها مع الوقت، ولكن ان كانت القوى الاساسية غير موجودة ، فانه لا يمكن نيلها مع الوقت . هذه القوى متوفرة لنا بكثرة ، ولكنها غير متوفرة ابدا لاسرائيل . هكذا يرجعنا مرة اخرى الى الدولة الواحدة التي يجب ان نقدمها على كل شيءاخر ،لانها هي الاداة التي تستطيع بها ان تحشد جميع تلك القوى الاساسية في سبيل معركة تحرير فلسطين . ولكن مرة اخرى . فان طريق الوحدة تمر بمصر ، ومرة اخرى نرى ان طريق تحرير فلسطين يفرض علينا الارتباط بثورتها الناصرية ، على الاقل ارتباطا مرحليا استراتيجيا ، كطريق الى هذه الدولة الواحدة .

(٦) الاستنتاج الذي يفرض ذاته من الملاحظات المتقدمة هو ان العلاقة الصحيحة بين المقاومة الفلسطينية وبين ثورة ٢٣ يوليو الناصرية والجيوش النظامية ، وبشكل خاص اساسي جيش الاخيرة، يجب ان تكون علاقة مساندة وتعاون وثيق ، هذا ان لم نقل علاقة ارتباط ، وليس كما يعلن هؤلاء الناصريون السابقون فيموقفهم التبشيري الشعائري ، علاقة تناقض تقدم فيها المقاومة نفسها بديلا عن الناصرية والجيوش النظامية .

هكذا نرى في هذا الموقف التبشيري الشعائري الذي يعبر عنه بشكل خاص ناصريون سابقون ، ان التخريجات اللفظية تركب الفكر، وان الثورة تتفرع من الفاظ ثورية . هذا الموقف قدم لنا المقاومة الفلسطينية بديلا عن ثورة ٢٣ يوليو الناصرية ، عن الجيوش النظامية ، من الوحدة العربية ، ليس لانها في الواقع والممارسة استطاعت او تستطيع ان تدلل على ذلك ، بل بسبب ذلك « التقليد العريق » في صفوف يسارنا الفكري ، الذي يستخرج الثورة من اللفظة ، واستراتيجية الثورة من تخريج بياني للثورة .

الالتزام بالمقاومة وتحرير فلسطين يجب ان يكون مقياس الثورية الصحيحة او الاصالة الثورية . فكل شيء يجب ان يكون فيخدمة معركة فلسطين والرصيد الثوري لاية حركة او نظام هو في درجة التزامه وتكريسه كل شيء لهذه المعركة . ولكن هذا غير كاف ،دون خط استراتيجي واضح فعال يتفرع من طبيعة المعركة واوضاعها، من طبيعة الواقع العربي والقوى الفاعلة فيه وفي التاريخ الذي يحيط به ، فدون هذا الوعي الثوري الموضوعي لا يؤدي الالتزام الى الفائدة المرجوة ، وقد يضر اكثر مما يفيد .

(٧) التناقض الاساسي الذي تحياه الحركة العربيه الثورية في الاقطار التي حققت فيها ثورتها ،هو التناقض بين الامة العربية وبين الامبريالية ، وليس بين بورجوازية يمينية وبورجوازية يسارية ، بورجوازية صغيرة وبورجوازية وسطية ، بين بورجوازية صغيرة وبين عمال وفلاحين الخ ... هذا التناقض الاساسي هو الذي يجب ان يكون محور استراتيجية العمل الفدائي ، وليس « التناقضات » التي يقدمها هؤلاء الناصريون السابقون . الصعيد الثوري الاساسي الذي نتحرك فيه ، هو صعيد المجابهة مع الاستعمار صعيد الكفاح ضده وضد جميع القوى التي ترتبط به ، او تساعده بطريق غير مباشرة .

حول هذا الموضوع كتب ماوتسي تونغ . :« يجب ان نتجنب كل سياسة مغامرة نحو التجار والصناعيين الصغار وفي الوسط . السياسة التي تبنيناها في الماضي ،في المناطق المحررة ، في حماية وتشجيع نمو جميع الصناعات والتجارة الخاصة المفيدة للاقتصاد القومي كانت سياسة صحيحة ويمكن استمرارها في المستقبل. ان سياسة تشجيع الاقطاعيين والمزارعين الاثرياء بنقل نشاطهم الى الصناعة والتجارة ، وهي السياسة التي تبنيناها في مرحلةتخفيض الاجار والفائدة كانت هي ايضا سياسة صحيحة » (١٠) .

ـ ١٠ Slected works of Maotse-tung , Vol , 3, Peking , 1961, P , 183

وبعد ان يذكر تعاون البورجوازية مع الكومينتنج تراه ينبهالى « ان ذلك لا يعني انه كان علينا ان لا نكسبها سياسيا او ان تجاهها لم تكن سياسة مغامرة ، ان سياستنا ، على عكس ذلك ، كان تجاهها لم تكن سياسة مغامرة ، ان سياستنا ، على عكس ذلك ، كان يجب في تلك المرحلة ، ان نعمل على حماية وكسب البورجوازية كي يمكن لنا ان نركز جهدنا على قتال اعدائنا الاساسيين » (١١)

ثم نراه يتساءل « من هو الشعب .. في الطور الحالي ؟ ..انه يتشكل من العمال ، والفلاحين ، بورجوازية المدن الصغيرة ، والبورجوازية الوطنية . هذه الطبقات تتحد بقيادة طبقة العمال والحزب الشيوعي في بناء دولتها الخاصة ، في انتخاب حكومتها الخاصة » (١٢)

بعد ذلك يكلم ماوتسي تونغ عن الصراع الثوري ضد اشكال الانحراف اليميني والانحراف اليساري كأهم انواع هذا الصراع (١٣). كما ان اللجنة المركزية « قاومت الانحراف اليساري واليمينية في الحزب ، ولكن بشكل خاص ، الانحرافات اليسارية » (١٤). فكل حركة ثورية تجابه في صعيدها الخاص يسارا يحاول انيتجاوزها دون وعي موضوعي للواقع ، ويمينا يحاول ان يعثر سيرها لانهيخاف من مجابهة الواقع . فعندما يبالغ الثوريون في قوة العدو ، في عنصر المقاومة ، في ثبات وجمود الواقع ، يتحولون الى يمين ثوري. وعندما لا يعطون العدو او الواقع الذي يحاربونه ما يجب مناهمية وصحة تقدير لقواه يصبحون يسارا ثوريا ، اي يسارا يريد ان يتخطى المراحل المختلفة سريعا ، دون اي تقدير صحيح للقوى الموضوعية التي تسود الواقع (١٥) .

لهذا كان « من واجب التقدميين الشيوعيين ، اعضاءالاحزاب الديمقراطية العمال الذين يتميزون بوعي سياسي ، الطلاب والمفكرين التقدميين ، ان يتحدوا مع الطبقات التي تقف في الوسط والعناصر المتخلفة في مختلف الطبقات ، مع جميع هؤلاء الذين لا يزالون مترددين ومتارجحي الارادة في الصين الشعبية، اعطاؤهم مساعدة صحيحة ، انتقاد ترددهم ، تثقيفهم ،كسبهم الى جانب الجماهيرومنع الامبرياليين من جذبهم » (١٦) .

اما كاسترو ، فانه يكتب ، حول هذا الموقف المتزمت ، الشعائري ، الذي يتخذهقسم منالناصريين السابقين . بان «التزمت والدوغمائية اللذين يتفرعان عن مفاهيم طبقة في تحليل الدورالذي يجب ان تمارسه كل طبقة اجتماعية ، احزابها ، ومنظماتها وقادتها، يجعلان من الصعب تحقيق وحدة العمل الضرورية بين القوى الديمقراطية والتقدمية لشعوبنا . هذه نقائص نمو ، وامراض مراهقة في الحركة الثورية ، وتجب ازالتها . ففي الكفاح ضد الامبريالية والاقطاعية ، من الممكن توحيد اكثرية الشعبالعظمى في برنامج تحرير يتجه لمصلحة الطبقة العاملة ، والفلاحين، والمثقفين ، والبورجوازية الصغيرة ، والاجزاء الاكثر تقدمية من البورجوازية الوطنية ، هذه القطاعات تضم الاكثرية الكبرى من السكان وتمثل قوى اجتماعية كبيرة مهيأة لانهاء سيادة الامبريالية وازالة الرجعية ... يجب ان لا نخلط بين التطرف وبين الحزم الثوري . فالاول يعبر عن روح بورجوازي صغير في الحركةالثورية، ويجب ان نكافح ضده ، كما نكافح ضد التزمت » (١٧) . انكاسترو

(١١) Ibid : P. 209
ـ ١٢ Ibid : PP : 417 - 418
ـ ١٣ Ibid ; P : 422
ـ ١٤ Ibid : P : 219
ـ ١٥ Ibid : PP : 181 - 182
ـ ١٦ Ibid : P : 429
ـ ١٧ Castro , F : Révolution Cubaine , presentation et Choix de L . Constant . paris , 1968 , PP : 141 - 142

تتمة «ثورة ٢٣ يوليو» والادب العربي

الداخل ، بكل حركة ايجابية مضيئة في العالم العربي . يشهد على ذلك ما ظهر من حوافز ملحة لعقد المؤتمرات الدورية للادباء العرب في فترة هذا النهوض الوطني العربي ، لمعالجة اهم القضايا الادبية والفكرية التي كانت تضعها احداث الحياة العربية ، في تلك الفترة ، امام الادباء والمفكرين في الوطن العربي عامة . وقد شهد شهر ايلول ١٩٥٤ مؤتمرين اثنين من هذا النوع ، احدهما باسم «مؤتمر الكتاب العرب» في دمشق ، والثاني باسم «مؤتمر الادباء العرب» في بيت مري بلبنان ، وكان هذا هو اول المؤتمرات الدورية للادباء العرب التي لا تزال تتوالى ، حتى كنا هذا العام بانتظار حلقتها النامية في دمشق ثم تأجلت لغير موعد معين . واذا لم يكن يتيسر لهذه المؤتمرات المتعاقبة ان تؤدي مهماتها المرجوة في دراسة القضايا التي تتصدّى لمعالجتها ، فان الذي يعنينا في هذا البحث ان نستشهد بها للدلالة على مدى عمق التفاعل الذي بدات آثاره ، منذ اوائل الخمسينات ، بين حركة الادب العربي وحركة الحياة العربية ، بما تطرحه من قضايا ملتهبة تثيرها الاحداث والتغيرات في صعيد الكفاح الوطني التحرري بعد ثورة ٢٣ يوليو ، بوصفها ـ كما قلنا ـ اول رد فعل انفجاري للنكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ .

* * *

ولكن التفاعل الفعلي المباشر بين الادب العربي وثورة ٢٣ يوليو ، لم تبرز آثاره ، بصورة حادة وصارخة الا عند نقطة الطفح في غيظ المستعمرين من هذه الثورة بعد خطوتها التاريخية الكبرى بتحرير قناة السويس .. كانت نقطة الطفح هذه بالعدوان الثلاثي الشهير على مصر ، خريف ١٩٥٦ ، الذي انتهى بانتصار مصر على المعتدين، بفضل بطولة شعبها ومساندة الاتحاد السوفياتي الحاسمة ، كما انتهى بتحقيق الجلاء الكامل للجيوش البريطانية المحتلة عن الارض المصرية نهائيا ، واستكمال مصر لاستقلالها الوطني الخالص من كل شائبة ، بالاضافة الى استقلالها الاقتصادي الذي حققته الثورة كذلك .

عند هذه النقطة الفاصلة ، انتفض الادب العربي بمختلف اشكاله ، كما انتفضت جماهير الشعوب العربية بأسرها ، تضامنا مع شعب مصر وثورته وقائدها جمال عبد الناصر .. ولو ان احدا تصدى اليوم لجمع الوان الشعر والمقالة والقصة وغيرها من فنون الادب العربي ، التي كتبت عن هذه المعركة ، وتغنت بها ، لاجتمع له من ذلك ما يربي على مجلدات . ففي لبنان وحده صدر من ادب هذه المعركة عددان ضخمان لمجلتي «الآداب» و«الثقافة الوطنية» ، وكتاب منفرد بعنوان «مع مصر في المعركة» لادباء لبنانيين وسوريين وعراقيين ومصريين ، نشرته «دار الفارابي» في العام نفسه .. ولكاتب هذه السطور دراسة عن «الادب الذي ولدته المعركة» (١) يومئذ وصف

١ ـ «الثقافة الوطنية» : العدد الاول ، السنة ٦ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧

كان يؤكد باستمرار « ان هناك مكانا لاي كان في جبهة ضد الامبريالية ، وانه لا يجب اعطاء جبهة من هذا النوع طابعا ايديولوجيا متشيعا » (١٨)

ودوبريه يؤكد من ناحيته « ان الكفاح المسلح في اميركا اللاتينية يتشكل اساسيا من الطلاب او البورجوازية الصغيرة .. ومن السخرية اعطاء هذه الاخيرة المعنى الضمني الذي تتخذه في اوروبا » (١٩) .

هذا اليسار ، الناصري سابقا ، اللاوحدوي ، اللاقومي ، الطبقوي ، « المتمركس » حاليا يقدم لنا في الواقع صورة هي من ابشع واقبح ما يمكن ان يصل اليه ما اسماه لينين باليسار الطفولي، وخصوصا في عدائه للناصرية ومخاصمته لها .

في معالجة موضوع الثورة ، او اي موضوع اجتماعي سياسي معالجة علمية يجب ان نحذر من الوقوع في اغلوطتين ، ما يمكن ان نسميه باغلوطة المبالغة ، او تحويل حقيقة او واقعة جزئية الى حقيقة او واقعة شاملة . وثانيا ، ما يمكن تسميته باغلوطة التبسيط او تحويل موضوع ذي ابعاد مختلفة الى صورة واحدة .

هذا اليسار اللاوحدوي ، اللاقومي ، الذي يتشكل من قسم من الناصريين السابقين يغوص حتى الاذنين في هاتين الاغلوطتين . انه لا يمارسهما فقط بل يعيش فيهما ، بهما ومنهما .

* * *

لا يكفي أن يكون الفرد ثوريا في المفاهيم او حتى الذات التي ينطلق منها ، بل يجب عليه ان اراد تحقيق مقاصده الثورية ان يتميز بوعي ثوري تاريخي عميق وخصوصا للمرحلة التي يعانيها ، فيعرف كيف يحدد موقفه من كل تحول ، وفي كل حلقة . من حركة الثورة العامة . عليه ان يضع في كل منها يده على المنطق الذي يدفعها والقوى التي تسودها . فيمسك بالمنطق والقوى كي يساند عملية التحول الثوري العام في مجراه ، وفي انتقاله من مرحلة الى اخرى.

القضية ليست ما نريد او نود بشكل مجرد ، بل ما يمكن صنعه في ظروف مرحلية معينة ، تحددها مقاصد ثورية معينة. المقصد الوحدوي الثوري يجب ان يكون المقصد الاول لانه الاداة الاساسية في تحقيق المقاصد الثورية الاخرى . كل هذه المقاصد تحتاج اليه ، ترتبط به ، ومن دونه تستحيل . الارتباط بثورة ٢٣ يوليو الناصرية هو ،في دوره ، اداة هذا المقصد الوحدوي اذ دون مصر . يستحيل هو ايضا . طالما ان ليس هناك من نواة جديدة للوحدة ، فالارتباط يجب ان يكون بثورة ٢٣ يوليو الناصرية ، ولكن عندما تتحقق هذه النواة من مصر وبعض الاقطار العربية الاخرى ، ينتقل الارتباط الى الدولة الجديدة وتتخذ اسمها رمزا له .

اننا لم نعرف كيف نفيد ، اثناء حياة عبد الناصر ، رائد ثورتنا الحديثة ، من ولاء الجماهير الغريب له فعسى ان نتدارك الامر بعد الفاجعة التي المت بنا في مماته ، فنتعظ ونحاول ان نفيد من الرصيد الثوري الفريد الذي تركه عند الجماهير العربية عبر الوطن العربي ، فنتجه الى الدولة الواحدة عبر مصر في ثورتها الناصرية ، وهي ثورة كل العرب تلك كانت امنيته الكبيرة، الامنية التي كرس لخدمتها امكانات الثورة وامكانات مصر . لقد اسأنا كثيرا للفقيد الكبير اثناء حياته فعسى ان نتمكن من تصحيح ذلك في مماته ، فنستبدل الاساءة بالامانة . فقد تتوقف على ذلك قدرتنا في الوصول الى الدولة الواحدة ، اي الى البعد الثوري الذي يرتبط به جميع مقاصدنا وامالنا الثورية الاخرى .

ميشيغن (الولايات المتحدة)
نديم البيطار

---

١٨ ـ Debray , R . Essais sur L'Amérique Latine , 1967 , Paris P: 102

١٩ ـ Ibid : P : 102 .